

كـ. الشيخ جمال قطب

مدير الإعلام بالأزهر الشريف

-مصر-

مدخل حول مصطلح الخطاب الديني وأبعاده:

هو مصطلح مستحدث صنعه هؤلاء المصدرون لعولتهم ، ونقله إلينا هؤلاء المترجمون الذين ينقلون عن الآخر دون أدنى تبصر بالوسط الذي نشأ فيه المصطلح.

وإذا جاز أن يقولوا الخطاب الأدبي، السياسي، الخطاب الفلسفي فإنه لا يجوز إطلاق مصطلح الخطاب مقرونا بمصطلح الدين ككل فالدين في أصله ومنبته خطاب إلهي علوي. ليس كمثله خطاب، ومن الأمانة العلمية أن يختص بمناهج خاصة غير تلك المناهج التي تتصدى لدراسات الخطاب البشري.

والمحدث في أي نوع من أنواع الخطاب البشري ينطلق من مصدر الخطاب وأصوله إلى وسائله وأساليبه ثم إلى فحوى الخطاب ومضمونه ثم إلى ما شاء من مقومات الخطاب إلخ. فهل يتسلل المصطلح للعبث في نطاق الوحي الإلهي والبيان النبوي.

ولذلك اتخذ الفكر الإسلامي مصطلحات خاصة واضحة ومحددة إذا ذكر المصطلح عرف المفهوم متميزا عن غيره .

ومن بعض المصطلحات الإسلامية التي يريد مصطلح الخطاب الديني أن يتلعبها ويحتويها مصطلحات:



الوحي، القرآن الكريم، السنة النبوية، التوحيد، الفقه، القيم، سنن الله، مقاصد الشريعة، الدعوة، الوعظ، الخطبة، المناظرة والمجادلة، المحاور، الشريعة.

وإذا كان لذوي الشأن والتخصص العلمي أن يتكلموا في الدعوة وفروعها فإن أحدا كائنا من كان لا يحق أن يتجرأ على الوحي الإلهي ولا البيان النبوي بتأويل خارج نطاقه أو بآليات غير التي يسمح بها الوحي تحت أي دعوى حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

أولا موضوع الدراسة:

ما يعرضه الباحث في هذه الورقة هو محاولة رسم خريطة عامة وخرائط مساعدة تعين الباحثين أثناء سيرهم في مشروعاتهم البحثية المتعلقة بهذا الحقل المترامي الأطراف الذي يسمونه (الخطاب الديني).

ثانيا: أهمية الدراسة:

وهذه الخرائط من وجهة نظر الباحث تمثل أهمية كبيرة تبلغ حد الضرورة، فبدونها يصبح الحقل مفتحا والإطار منتفخا والتضاريس كثيرة بين مضائق وثغرات، ومفاوز وهضاب ووديان، وقمم شامخة وأخرى كاذبة فضلا عن المحيطات والبحار غائرة العمق عسيرة الولوج مهما كانت قوة الضغط الخارجية في يد المقتحم ومهما كان الضعف باديا على ساحة الحقل، وتبدو تلك الأهمية على الوجه التالي:

1- الأهمية العلمية:

نظرا لهذا المدى المتسع للمصادر والوسائل والآليات والأنواع والدرجات إلخ المنضوي تحت لواء هذا العنوان يصبح مصطلح الخطاب الديني لا يمثل مصطلحا علميا



قابلا للتداول في قاعات الدرس الأكاديمي ، ولا صالحا للإستعمال لما يفتقده من منهجية شروط الإصطلاح كأن يكون محددا جامعا مانعا اللهم إلا إذا كان هذا المصطلح إعلانا يقصد إحلال التخيل والتزوير في محل التحليل والتدبير.

كذلك فإن المصطلح متزوع من الدراسات الأدبية ، ومغروس في حقول الدراسات العلمية مما يجعل المصطلح غير مكافئ لحقيقة الموضوع وغير كاف في منهجيته.

2- الأهمية الدينية:

ومن الناحية الدينية فإن الإسلام يفرض على معتقيه قواعد للدرس والبحث تفرض تحديد المصطلح وجعله جامعا مانعا إذ حرص القرآن على دقة الإصطلاح حيث رفض التعبير بالإيمان مكان الإسلام... ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات 014)

3- الأهمية العلمية:

ومما هو جدير بالإهتمام أن يرى القائمون على الخطاب حدود ما يمكنهم النظر فيه ... ومدى ما يسمح لهم بالخوض فيه حتى لا تتزلق أقدام المغامرين إلى حدود المصدر الرئيس للدين ويظنون أنهم يقدرّون على الإضافة والحذف والإستبدال والمنع أو التقليم والتأخير أو حتى مجرد التأويل على غير الأصول التي يسمح بها المصدر الرئيس وهو الوحي الإلهي والبيان النبوي .



والقوى السياسية اللاعبة في ساحات العالم الإسلامي من حكومات ومعارضة ومجتمع مدني بحاجة ماسة إلى تلك الخرائط كي يتبصر الجميع مواقع أقدامهم كما يتوافق الجميع على الخطوط الحمراء التي لا يمكن تجاوزها في حقول ما يسمى بالخطاب الديني أمام أي تهديد ولا تحت أي ضغوط وإلا فلا تلوم تلك القوى إلا نفسها. إذا اهتزت العروش وتزلزل الاستقرار، وتعطلت حركة الحياة ونشطت أسباب الخلل والضعف والهوان.

ثالثاً: لمن هذه الدراسة:

وقد أعددت هذه الدراسة لغير المتخصصين ولغير أهل الذكر حيث اجتمع على الفكر الديني من كل صوب وحذب يخترقون الحدود ويعتدون.

رابعاً: أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحديد المعالم الرئيسة لهيكل ما يسمى "بالخطاب الديني" ... مع بيان العلاقة بين تلك المعالم ومدى تقاربها أو تباعدها والإمكانية المتاحة للإقتراب من تلك المعالم دراسة وتجديداً .

خامساً: مشكلة الدراسة:

والمشكلة التي تتصدى لها الدراسة هي مشكلة "الإتساع والغموض والإبهام" في مصطلح "الخطاب الديني". مما يجعله مصطلحاً مخيفاً ملغماً مخفواً بالمخاطر يجمع المصادر بالوسائل والآليات ويخلط الموضوعات بالأساليب مما يستلزم وقفة علمية متأنية لفض تلك التداخلات.



وقد كثرت الدراسات في هذا الموضوع الخطير كثرة تزيد الشك وتوقظ حاسة الترقب وتستنفّر جميع القوى المؤمنة بل أن من شأن تلك الدراسات أن تحفز ذوي السلبية لتغيير مواقعها حراسة لأنفسها ومدافعة عن بقائها وتتمثل كثرة هذه الدراسات في ثلاثة اتجاهات.

1- دراسات مقتحمة عاتية معتدية، قامت -ولازالت تقوم- بالإغارة المباشرة على معالم الإسلام ومصادره العليا ومدارسه وفكره تحاول إقصاء الإسلام وهميشه في حياة المسلمين كما تحاول استئناس البعض وإذلال البعض واقتلاع الآخرين إذا لزم الأمر وذلك في سبيل فرض عولمتهم وثقافتهم وحضارتهم ونموذجهم الشرير لإدارة شؤون الحياة. وعن عدد هذا النوع من الدراسات حدث ولا حرج . فقد ولدت هذه الدراسات في واشنطن ولندن وباريس وروما في قوالب متعددة وهي أكثر من أن تحصى في مقام كهذا.

2- دراسات تابعة خائعة: قامت بدور المحاكم الاستثنائية عقدها بعض أهل الثقافة والإعلام في عالمنا الإسلامي من منطلق التبعية والتقليد ... فقد عقدوا مؤتمرات ودونوا دراساتهم كلوائح إتهام للأصول العليا خاصة ولل فكر الإسلامي بعامة وأنشأوا لها محاكم تحت مسمى مؤتمرات وندوات وعقدت لها جلسات بمسمى (أبحاث ودراسات) وإمتلأت القاعات بمدعين وقضاة ولا من يحامي فغوئك اللهم !!!



وتستطيع أن تجد أمثلة لذلك النوع من الدراسات مما طرح في ندوة باريس 12 ، 13 أغسطس 2003، وكذلك ما تضمنه محور الخطاب الديني ضمن مؤتمر الثقافة بالقاهرة 2003. وغير ذلك مما لا يحتاج أهل الحق المهتمون بالشأن الإسلامي إلى بيانه .

3-دراسات علمية محايدة: تمثلت في مؤتمرات وندوات ملتزمة منهجية معلنة ومتحققة بضوابط علمية مقررمة مستهدفة استجلاء حقيقة الموضوع وأهميته. وقد اشتملت أبحاث تلك المؤتمرات والندوات على دراسات جيدة العرض علمية التحليل محايدة الهدف وإن كان حرصها على تنوع الرؤى قد فتح الباب لبعض الورقات التي تغرد خارج السرب كما هوت ورقات أخرى في ظلمات الخطابية أو عدم الدراية بخط السواء. وأبرز أمثلة لتلك الدراسات المحايدة هو ما تداولته أروقة ندوة تحديد الخطاب الديني بجامعة دمشق 10/12 / 2004 ... وندوة تحديد الخطاب الديني بجامعة القاهرة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في 15، 16/6/ 2005 ... كذلك يستشرف الباحث لهذا الملتقى الكريم بجامعة الجزائر أن يكون على قمة متقدمة من الدراسات العلمية المحايدة.

سابعاً: أسباب الدراسة:

1-السبب الرئيس :

وصلب هذه الدراسة هو فصل في مشروع كتاب - تحت الإعداد والنشر - أعده الباحث كمرآة تعكس الملامح التي يحاول مصطلح الخطاب الديني أن يتلعبها وأن يعيد إخراجها كما يريد صانعوا المصطلح.



2- أما السبب المباشر:

فقد اقتطعنا فكرة هذا الفصل من مشروع الكتاب لأنها تمثل نسقا خاصا يتوافق مع محاور هذا الملتقى.

ثامنا: علاقة الباحث بالدراسة:

والباحث ليس غريبا على موضوع الدراسة ولا مقتحما لها من خارج الإطار بل ينتمي الباحث إلى مدرسة عريقة من مدارس الفكر الإسلامي وهي الأزهر الشريف. انتمى إليه الباحث تلمذة ودراسة ثم ترقى في أروقة الدعوة حتى تولى رئاسة الإعلام الديني بمجمع البحوث الإسلامية كما آلت إليه رئاسة لجنة الفتوى بالأزهر الشريف حتى عهد ليس بالبعيد.

تاسعا: الإطار النظري للدراسة:

1- مفاهيم الدراسة:

تفصل الدراسة بين المصطلحات الغربية المستوردة بما تحمله من مفاهيم هلامية مطاطة مشحونة بأغراض لا تخفى على أحد ومن ناحية أخرى المصطلحات الإسلامية ومفاهيمها المحددة وأبرزها الدراسات الشرعية والدعوة ومجالاتها.

2- نوع الدراسة:

وهذه دراسة استطلاعية لم تبلغ نهايتها نظرا لضيق الوقت بين وصول الدعوة الكريمة وبين موعد انعقاد المؤتمر.



3- المنهج المستخدم:

يعتمد الباحث على منهج المسح والإستقصاء أملاً في تحديد معالم واضحة لخرائط ما يسمى بالخطاب الديني

4- الإطار المكاني:

وغني عن القول إن هذه الدراسة وإن كانت صغيرة الحجم هي تتبع دعوى (تجديد الخطاب الديني) على امتداد العالم الإسلامي والعالم الآخر.

5- الإطار الزمني:

وإذا كان الإطار المكاني ممتداً والإطار الزمني محدد المساحة الزمنية فإن الدراسة تتابع تلك القضايا والدعوى منذ عام 2003 حتى الآن.

عاشراً: هيكل الدراسة:

تضم الدراسة عينة لخرائط الخطاب الديني في ستة محاور من محاور ما يسمى بالخطاب الديني وهذه المحاور هي:

1. خريطة مصادر الخطاب الديني.
2. خريطة مستويات الخطاب الديني.
3. خريطة موضوعات الخطاب الديني.
4. خريطة المؤهلين للتجديد في الخطاب الديني.



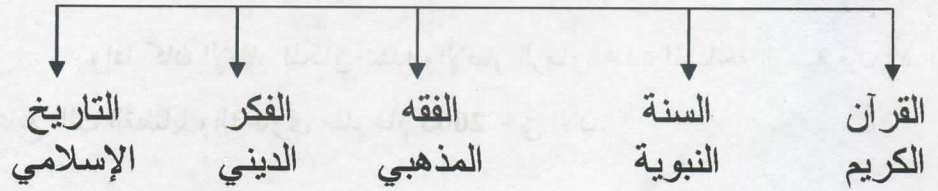
5. خريطة المطالبين بالتجديد في الخطاب الديني.

6. خريطة أنماط الخطاب الديني.

وقد قدمت كل محور من هذه المحاور الستة في خريطتين أولهما تبين المحور في الأفق الإسلامي والأخرى تبين التصور الغربي المفتوح بغير ضوابط علمية ولا خلقية.

الخريطة الغربية

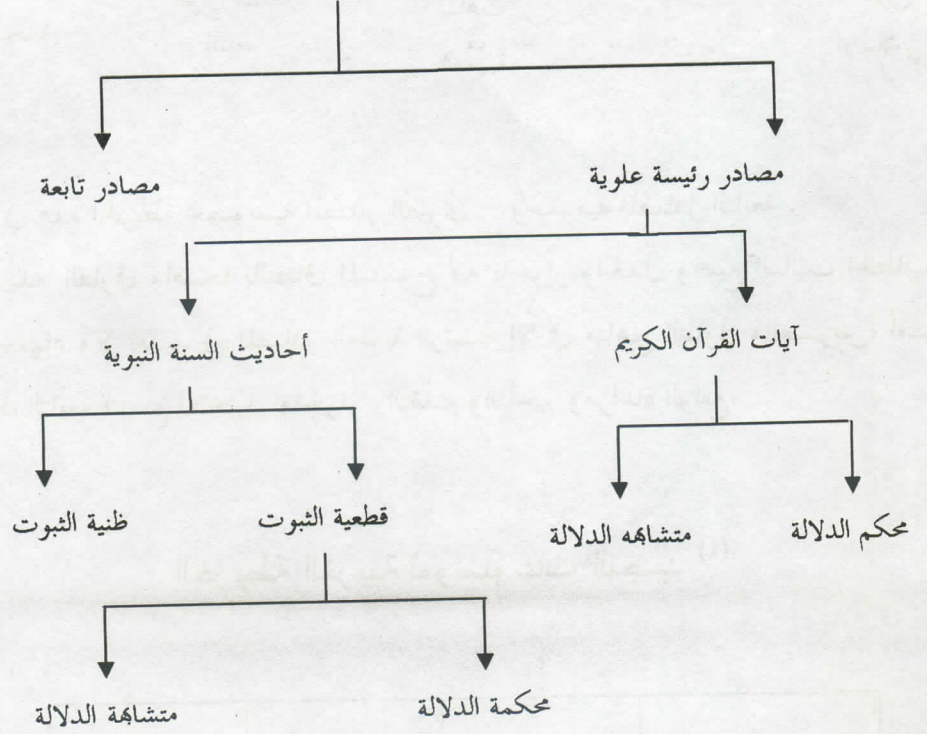
مصادر الخطاب الديني

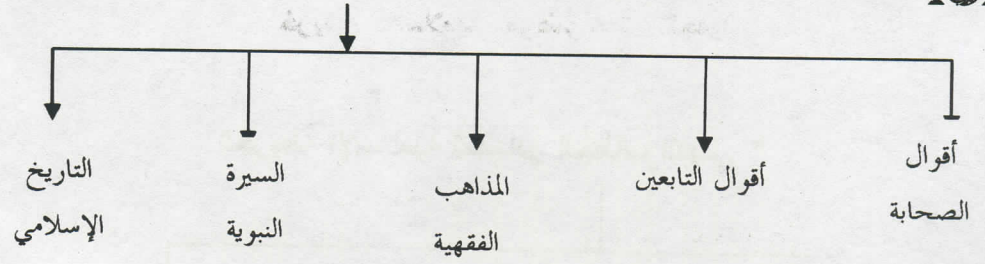


هكذا نرى جميع المصادر رئيسة كانت أو تابعة معرضة لغزو التجديد والتبديل بدعوى أن كل هذا في مصطلحهم تراث قابل للمراجعة والانتقاء حيث إنها طبقاً لرؤيتهم خطاب ديني.



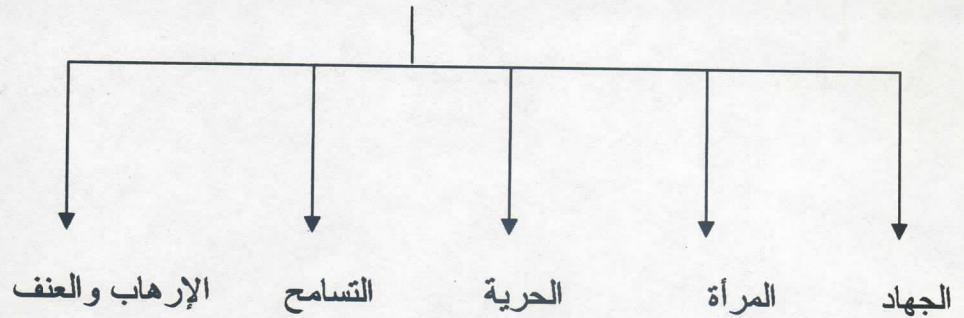
* الخريطة الإسلامية لمصادر الخطاب الديني





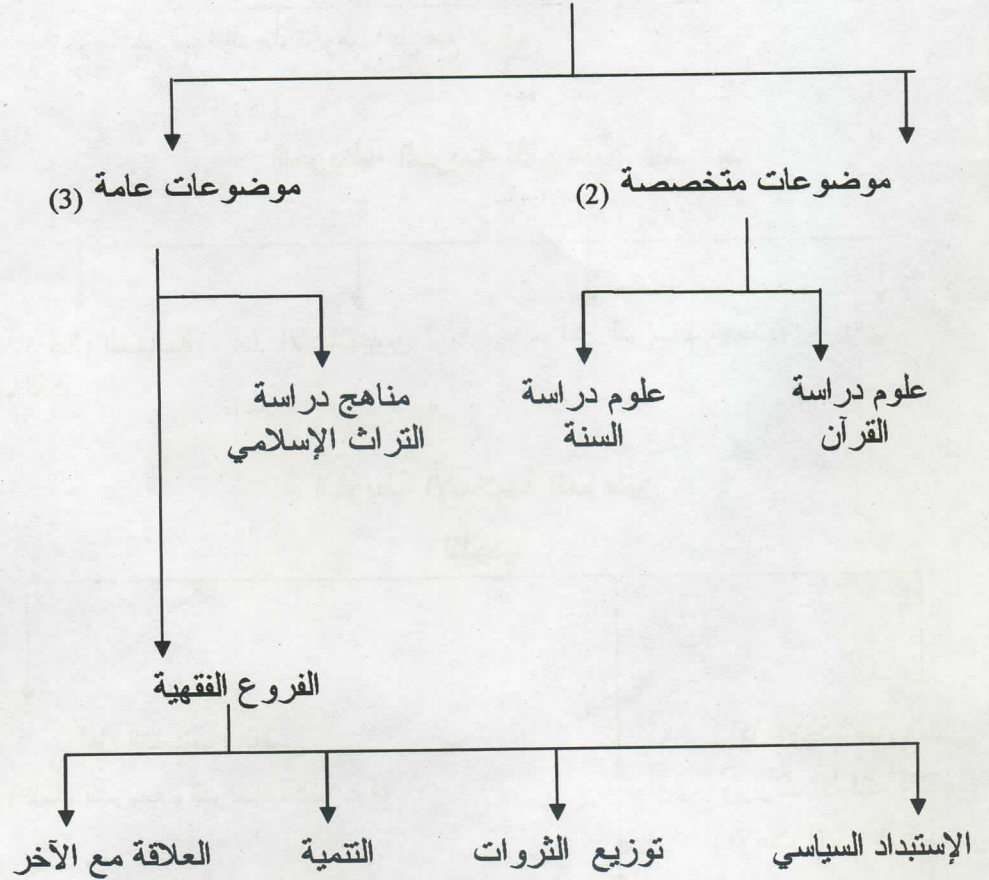
تبدو في هذه الخريطة خصوصية المصدر العلوي - وعمومية المصادر التابعة .
كما يبدو الفارق واضحاً بالنطاق المسموح فيه بالحوار والجدل وجميع أساليب الخطاب.
فلا اجتهد ولا تحديد في المصادر العلوية الرئيسة إلا في مناهج التناول والعرض، أما
المصادر التابعة فتتسع للاختيار والحوار والتقديم والتأخير ومراعاة الواقع.

الخريطة الغربية لموضوعات التجديد (1)





الخريطة الإسلامية لموضوعات التجديد

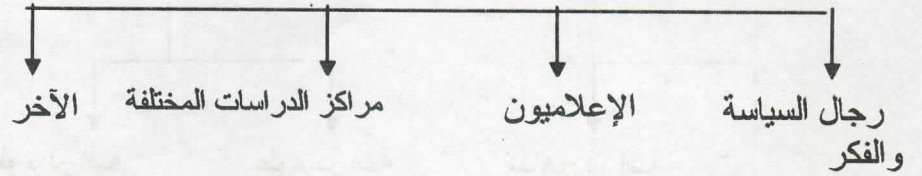


1. موضوعات مقطوعة عن سياقها تم تجزيئها من الفكر الإسلامي حسب الرؤية الغربية.
2. موضوعات متخصصة لا تطرح إلا في الدراسات الأكاديمية الإسلامية المتخصصة وفي المؤسسات المحصنة والمقبولة عند المسلمين.



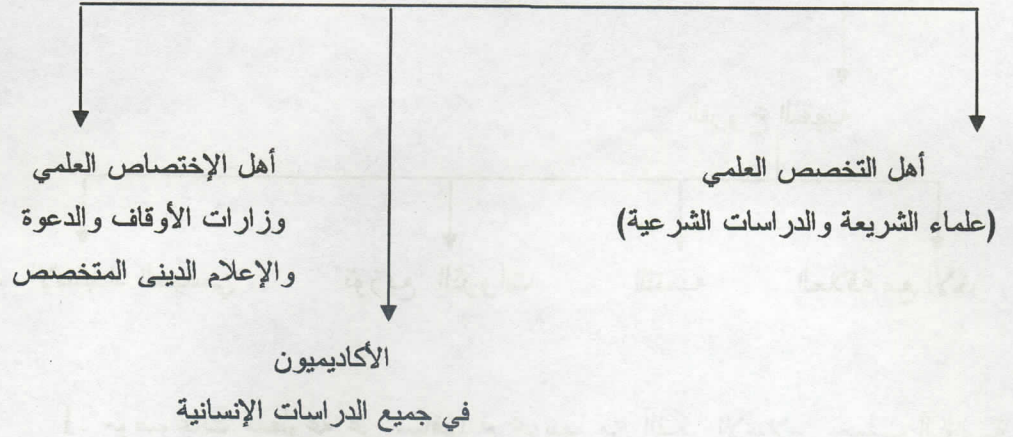
3. موضوعات الدعوة الإسلامية ومجالها الخصب الذي تتعدد فيه الاجتهادات ويستمر فيها التجديد والتفاعل مع الواقع.

الخريطة الغربية للمؤهلين للتجديد



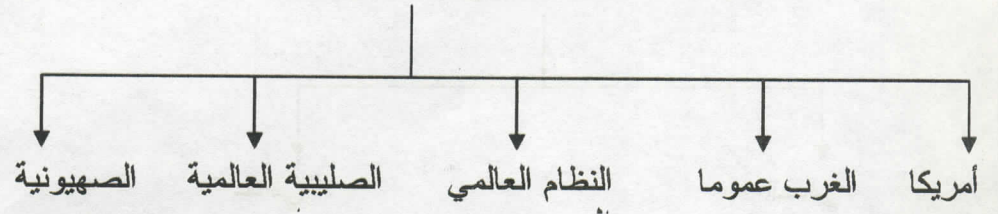
الخريطة الإسلامية للمؤهلين

للتجديد

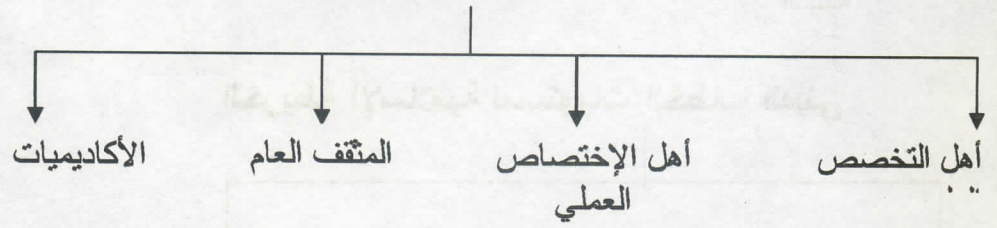




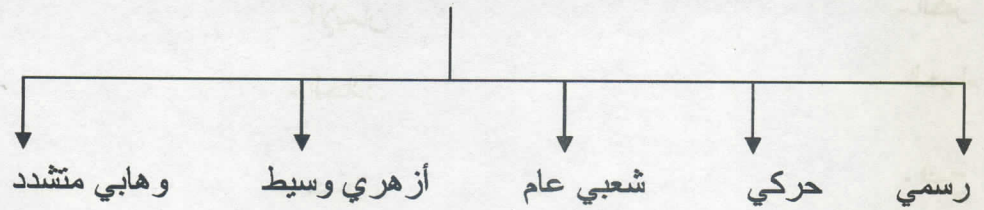
الخريطة الغربية للمطالبين بالتجديد



الخريطة الإسلامية للمطالبين بالتجديد

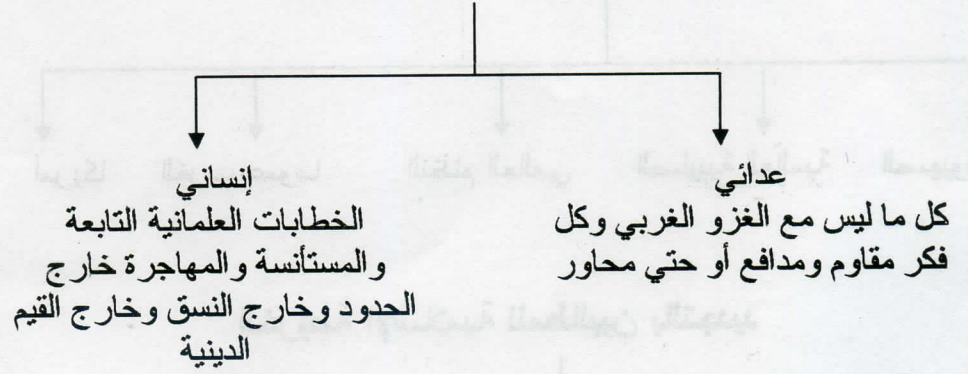


الخريطة الإسلامية لأنماط الفكر

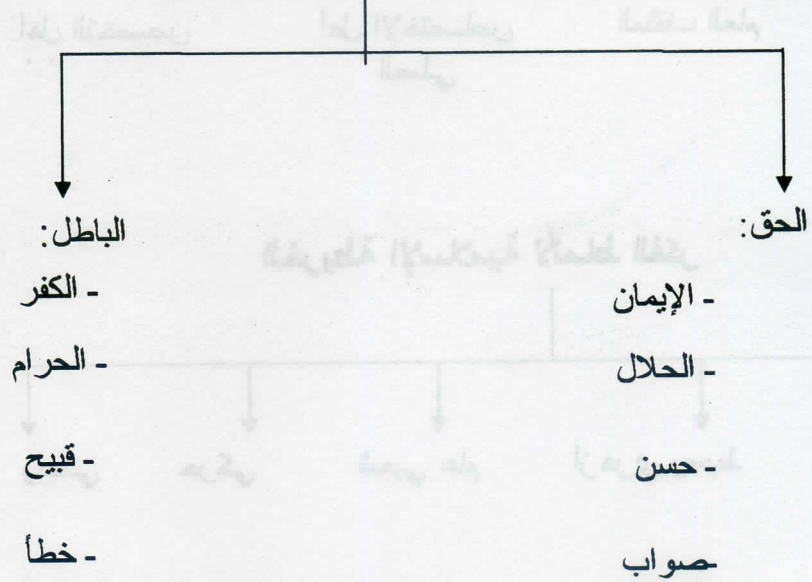




الخريطة الغربية لأنماط الخطاب

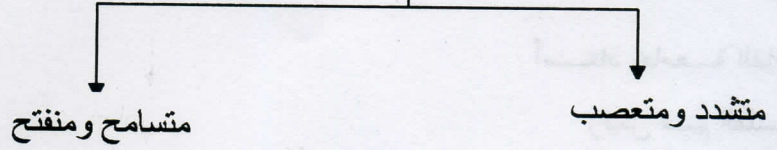


الخريطة الإسلامية لمستويات الخطاب الديني





الخريطة الغربية لمستويات الخطاب الديني



الخاتمة:

وبعد فهذا جهد المقل وبضاعة الضعيف الذي لا يمضي حتى يكل ، وقد سطرت فيها بعض ما يشغل العقل والقلب حينما يذكر اصطلاح الخطاب الديني. فهل تعي الأمة مصادر الضغط الخارجي وهي تقتحم هويتنا وديننا ولغتنا المقدسة فنتبسه لها ونؤدي دورنا حيالها أم تمتد أيدينا إلي البضاعة المصدرة لنا نستهلكها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة 256.